

المشرق الرقمية



مجلة إلكترونية تصدر مرتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثالث. كانون الأول ٢٠١٣

"الإصغاء الناشط لأبنائنا الناشئين"

دنيا حشيمة بو خليل*

غالبًا ما يمتعض الآباء من سماع آراء أبنائهم حين يعبرون عن شعورهم
الصريح والواضح بما يلي:

* أنا تعيس لأنني مكروه في هذه الأسرة.

* أنا لا أحبك.

* أنت تحبّ فادي وتفضّله عليّ.

* أنا غشّاش في الامتحانات وأريد ترك المدرسة نهائيًا.

* تصلح الشهادات لأولئك المعتوهين.

لا ريب أنّ إجابة الأبوين الإيجابية تبقى مبرّرة لاعتباراتٍ عدّة، أولها
الطموحات المخطّط لها من قبلهما والتي من شأنها تأمين مهنة أو حرفة تحسّن
وضع أولادهما الاجتماعيّ، وتحدّد دورهم المميّز والفعال في عمليّة بناء

* دكتورة في علم اجتماع التربية.

مجتمعاتهم. فما بات الأبناء مثابرين لا يتخلّيان عن دورهما التربويّ، كما أنّهما يؤمنان بأهمّيّة الإصغاء الناشط ويتمّان مسؤوليّاتهما حتّى النهاية.

أمّا الاعتبار الثاني فغالبًا ما يلخّص بضالّة ثقة الأهل بقدرة أبنائهم على إيجاد حلولٍ ببناء لمشاكلهم الضاغطة، إذ غالبًا ما يخافون من تورّط فلذات أكبادهم بالقضاء أو يخافون من وقوعهم في مشاكل تسبّب ضررًا ماديًا أو أدبيًا.

ويقتصر الاعتبار الثالث على رفض الآباء شعور أبنائهم السلبيّ المعبر عنه بالغضب أو اليأس أو خيبة الأمل، الشعور السلبيّ ذلك الواجب قبوله لدى المرّيين، الأجداد منهم من ثمّ الآباء والأبناء، والقول الأصحّ يعبر عنه بالآتي: أساعد ولدي إذا شرعت إلى قبول ضعفه والاستماع أو الإصغاء بطريقة ناشطة إلى المشكلة المطروحة ولسان حالي يقول: "كم هو صعب تقبّل هذه الحقيقة، فهي تكاد تكون من المستحيلات!".

وربّ آباء من هم أقلّ مثابرة وأكثر وقوعًا في الحيرة والتخلّي عن وظيفتهم التربويّة.

نقف أمام الاعتبارات الثلاثة هذه ونتساءل: ما هو التصرف الأبويّ السليم أمام أزمة الثقة المطروحة بين الآباء وأبنائهم؟

- تشجيع الأهل أبناءهم وحثّهم على مواجهة مشاكلهم بطريقة ببناء، والسعي إلى إيجاد حلولٍ ملائمة من شأنها مساعدتهم في الحصول على نتائج أفضل، حتّى لو قاسوا حالة من عدم الرضى على كشف مكونات أبنائهم. تضمحلّ هذه الحالة كلّما حاول الآباء وهب الثقة لأبنائهم في أثر التمرّس على الإصغاء الناشط.

- محاولة خروج الآباء من بوتقة عدم الثقة الضيقة والشكّ في قدرات أبنائهم، والسعي للتعامل معهم كائناتٍ راشدة ذات خبراتٍ خاصّة تمكّنهم من القيام بالاختبار الملائم لعمرهم ولتطلّعاتهم المستقبلية، مُحافظين دومًا على علاقة الثقة التي تربطهم بالكبار: أعلم علم اليقين أهمّيّة متابعة دروسي المدرسيّة والجامعيّة لكي أضمن مستقبلي بصورة أفضل، ذلك أنّ والدي ومن جاورني من الإخوة والأقارب والأصحاب سلّكوا ذاك الدرب وهم يشكّلون مثالًا يُحتذى، سلّبا

بتكوين ردّة الفعل الإيجابيّة على فشلهم أو إيجابياً على طريقة التماهي والسعي للأفضل.

هل يستطيع الآباء الوثوق بأبنائهم، ولماذا؟

الجواب هو نعم فقط حين يمنحونهم ثقتهم، ويستشّفون من خلال الإصغاء الناشط وإزالة العقبات حالةً من الشفافيّة تجعلهم يبلورون لباب المشكلة الأساسيّة، بعيداً عن إصدار الأمر أو التهديد أو النصح أو الحلول المعلّبة أو الوعظ والتأنيب.

لماذا يستطيع الآباء الوثوق بأبنائهم؟

لا ريب أنّ للإصغاء الناشط نتائج إيجابيّة تظهر عند الأبناء الذين باتوا يتمتّعون بقدرة أكيدة على تحمّل المسؤولية. فحين يتوجّه الأب أو الأمّ إلى ولدهم بالأقوال التالية، فإنّما يسكبون على كاهلهم بلسم الدعم المعنويّ ذي التأثير القويّ الذي من شأنه حتّهم على مواجهة مشاكلهم الخاصّة، بدل الاتكال على أهلهم:

* "لا أثار سلبية لمشاكلك على محبّتي إياك واهتمامي بشؤونك، ذلك أنّ لكلّ منّا مشاكله اليوميّة".

* "لا أنوي أخذ مكانك لحلّ مشكلتك!".

* "تقتي كبيرة بقدرتك على حلّ هذه المشكلة بطريقة بناءة!".

أمّا التصرف المسؤول فغالباً ما يعبر عن معاناةٍ ووجعٍ نلمسهما في ما يلي:

تجيب تلميذة أستاذها وهي في العاشرة من عمرها اعتادت التواصل الإصغائيّ الناشط مع والدّيها: أحسُّ بالعدائيّة وبالتأنيب حين تجبرني على تغيير مكاني في الصفّ، علماً أنّي لم أقترف ذنباً!، عبّرت عن مشاعرهما كتابةً مؤكّدة أنّها غاضبة، وأنّ تصرف المعلّم غير لائق، كما أنّها تؤكّد حقّها في اختيار المكان الذي يريحها في الصفّ، وتقدر جهود المعلّم المغموّر في متابعة التلاميذ

بعدهم الكبير! وكان جواب الأستاذ إيجابياً إذ سمح لها اختيار المكان الذي يريحها في الصفّ، كما حصلت على احترامه وتقديره.

نستخلص بالقول إنّ الأبناء المتمتّعين بقدراتٍ عقليةٍ سليمةٍ يميلون طبيعياً نحو اكتشاف حلول لمشاكلهم الخاصّة بحيث تزداد ثقتهم بأنفسهم، ويصبحون آنذاك قادرين على تقبّل حلول الآخرين، إخوانهم في المجتمع الواحد.